٦ ماذا تعلم عن..؟

كيف نشأت لغة الإنسان ؟



دار المعارف

ماذا تعلم عن ..
٦
موسوعة للأطفال تغطي مجالات المعرفة
البشرية المختلفة بأسلوب شائق

كيف نشأت لغة الإنسان

بقلم
محمد حمزة السعداوى

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-Mail: maaref@idsc.net.eg

كانَ خالدٌ سَعِيدًا جِدًّا، إِنَّه سَيرْكَبُ الطَّائِرَةَ لأوَّلِ مَرَّةٍ، لَقدْ وعدَهُ والِدُهُ إذا نجحَ هذا العَام أنْ أُخُذَهُ معهُ فى رِحْلةٍ إلَى لَنْدَنَ.

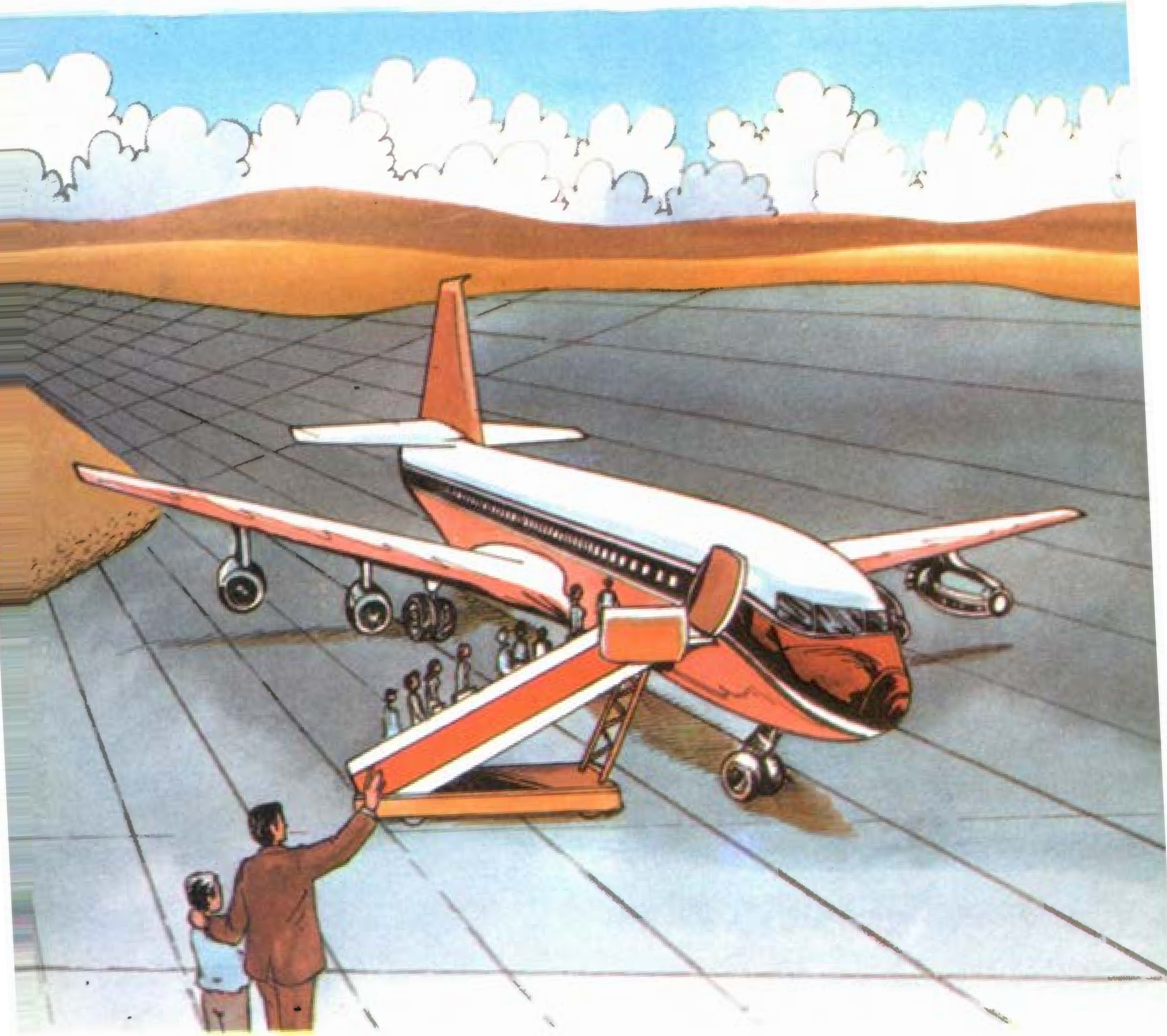
باتَ خالِدٌ لَيْلَةَ السَّفَرِ يُعِدُّ حقِيبَتَهُ، ويَحْلُمُ بِما سَيراهُ فى رِحْلَتِه، ما شكْلُ الطَّائِرَةِ مِنَ الدَّاخِلِ؟

كيْفَ تَطِيرُ؟ وَكَيفَ تَهبِطُ؟ وهلْ سَيَرَى الأرْضَ وهُوَ فى الجَوِّ؟ وما شَكْلُها؟

وفى ظُهْرِ اليومِ التَّالِى توجَّه مَعَ والدِه إلى المَطارِ وهُناك جلَسَا فى صالةِ الانْتِظارِ.

ولمْ يَمْضِ وقتٌ طويلٌ، حتَّى سمعَ صوْتَ المُضِيفَةِ تُعْلِنُ عنْ قرْبِ قيامِ الطائِرَة المُتَّجِهة إلى لنْدن.

ركبَ المسافرُون أتُوبيسَ المَطارِ الَّذى اتَّجهَ بِهِم إلى مَكانِ وقُوفِ الطائِرةِ، فأسْرعَ خالدٌ يَصْعَدُ السُّلَّمَ، ويجْلسُ بجِوار النَّافِذَةِ، إنَّه يُريدُ أنْ يتطَّلَعَ مِنها لِيرَى البيُوتَ والأشْجارَ وهوَ فى الجَوِّ وكيفَ سيكونُ شَكْلُها؟



وفجْأةً شاهدَ سُلَّمَ الطَّائِرَةِ يبْتعِدُ عنْها، ويُقْفَلُ البابُ، اسْتِعْدادًا للإقْلاعِ.

وبعْدَ دَقائِقَ، دَارتْ مُحَرِّكاتُ الطائِرَةِ، فأحْدَثَتْ أَصْواتًا قوِيَّةً عالِيَةً، ثمَّ تحرَّكتْ تجْرِى على مَمرَّاتِ المطار، وفجْأةً، هَدَأتْ مِنْ سُرْعتِها، ثُمَّ زادَ ضَجِيجُها، وبدأتْ ترْتَفِعُ فى الجوِّ.

نظرَ خالدٌ من نافِذَةِ الطَّائرةِ، وفجْأَةً صَرَخ:

- انْظُرْ يا أبِى.. البُيُوتُ كأنَّها عُلَبٌ صغِيرةٌ! والسيَّاراتُ تُشبِهُ اللُّعَبَ!!

تبسَّمَ والدُه.

وجاءَتِ المَضِيفَةُ تُقَدِّمُ الطَّعامَ لِلرُّكَّابِ، وبَعْدَ أنِ انْتَهى خالدٌ مِنْ طعامِهِ نظرَ من النَّافذَةِ..

ولكِنَّهُ لَمْ يَرَ الأرْضَ، فَتناولَ مجلَّةً وأخذَ يقْرَأُ فِيها.

وعِنْدما وصلتِ الطَّائرةُ إلى لنْدَن اتَّجَهَا إِلى أُسْرَةٍ من أصْدِقاءِ والدِهِ لِيُقِيما عِنْدَها.

وتعرَّفَ خالدٌ علَى طِفْلٍ صَغِيرٍ هُناكَ اسمُهُ (فيليب).. ولاحظَ خالدٌ أنَّ النَّاسَ كُلَّهُم يتكلَّمونَ اللُّغَةَ الإِنْجِليزِيَّةَ.

إنَّهُ لا يفهَمُ مِنْهم إلَّا بَعْضَ الكَلِماتِ «مَساءَ الخيْرِ، حَظٌّ سَعِيدٌ، كيفَ حالُك؟».. حتَّى أطفالُ الأسرةِ التى نَزَلا عِنْدها يتكلَّمونَ الإنجليزيةَ.

وفى اليومِ التَّالِى جلسَ خالدٌ مع والدِهِ يتحدَّثانِ..



قالَ خالدٌ: إنَّ «فيليب» طفلٌ صغيرٌ ويتكلَّمُ الإنجليزيَّة أحْسَنَ مِنِّى !!

ضَحِكَ والدُهُ وقال له: هلْ «فيليب» يتكلَّمُ العَرَبِيَّةَ مِثْلكَ؟

فردَّ خالدٌ: لَا.. إنَّه لا يعرفُ كلمَةً واحِدةً.

فقالَ والدُه: إنَّ «فيليب» نشأَ فى هذِهِ الأسْرَةِ الإنْجليزِيَّةِ، فتعَلَّمَ

اللُّغَةَ مِنها، وأنتَ نَشَأْتَ فِى أُسْرَةٍ عَرَبِيَّةٍ، فتعلَّمْتَ اللُّغةَ مِنَّا، وهكذا.. كُلُّ طِفْلٍ يتعلَّمُ اللُّغةَ مِنَ البيئَةِ الَّتِى يَنْشَأُ فِيها.

سأَلَ خالدُ والِدَهُ فى اسْتِغْرابٍ: إنَّ أُخْتِى سَحَر لا تتكلَّمُ، فهلْ سَتَظَلُّ هكَذا؟

قالَ والدهُ: سحر وُلِدَتْ قَبْلَ أَنْ نأْتِى إلى هُنا بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، فَهِى لَمْ تَتَعَلَّمِ الكلامَ بعْدُ، لكنَّها تُعبِّرُ عَنْ حاجَتِها بِلُغَتِها الخاصَّةِ. عنْدَما تُحِسُّ بِالجُوعِ تَبْكِى، كأَنَّها تُرِيدُ أَنْ تقولَ: «أَنَا جائِعَةٌ»، وعنْدَمَا تُحِسُّ بِمَغَصٍ تَبْكِى وَتَرْفُسُ.. تُريد أَنْ تقولَ: «أنا مَرِيضَةٌ».. هذِهِ هِىَ لُغَةُ المولُودِ الصَّغِيرِ، يُعبِّرُ عمَّا يُرِيدُ بِالأَصْواتِ والحركاتِ. وبعْدَ أَنْ تَكْبرَ قَلِيلاً، تَسْتَعْمِلُ الإشارَةَ مَعَ الصَّوتِ، فَعِنْدَما تُرِيدُ أَنْ تشْربَ تُشِيرُ بِيدِها إلى كُوبِ الماءِ وتقولُ: «أَ.. أَ»، ثُمَّ تبْدَأُ فى نُطْقِ جُزْءٍ مِنَ الكلِمَةِ تَقُولُ: «بَا.. بَا» «مَا.. مَا»، «لَحْ» يعْنِى «بَلَح»، وهكذا حتَّى تَكْبُرَ أَكْثَر فتنْطِقَ الكَلِمَةَ كُلَّهَا «بَابَا - مَامَا - بَلَحْ».. وبعْدَ فتْرَةٍ تَنْطِقُ جُملَةً قَصِيرةً «أشْرَب ماء» ثُمَّ جُمْلَةً طوِيلَةً، حتَّى تتكلَّمَ مِثْلَنا.

وبِسُرعةٍ قالَ خالدُ: مَنِ الَّذِى سَيُعَلِّمُها الكلامَ يا أَبِى؟



أجابَ والِدُهُ: أنتَ وَلدٌ ذَكِيٌّ يا خالِدُ، تَسْأَلُ دائِمًا لِتَعْرِفَ.
أُخْتُكَ سَحَرْ، أَوْ أيُّ طِفلٍ آخَرَ، يُولَدُ فى أُسرةٍ.. وَكُلُّ أفْرادِ الأسْرَةِ يتكلَّمون أمامَهُ، ويتكرَّرُ الكلامُ كُلَّ يومٍ وهُو يَسْمَعُ، ويُشاهِدُ، ويختَزِنُ، ثُمَّ يُحاوِلُ أنْ يُقَلِّدَهُم، وأخيرًا ينْطِقُ ويتكلَّمُ كما قُلْتُ لَكَ.

وسَأحْكِى لكَ قِصَّةً حَدَثَتْ مُنْذُ فتْرَةٍ طوِيلَةٍ:

ذَاتَ يوْمٍ، خرجَ بعْضُ الرِّجالِ لِلصَّيدِ فى الصَّحراءِ، فشاهَدُوا مَجْمُوعةً منَ الغِزْلانِ، فأسْرعُوا وراءَهَا لِيصْطادُوا مِنْها واحِدَةً، فوجدُوا وسْطَ الغِزْلانِ شَيْئًا يجْرِى لا يُشْبِهُها، ولمَّا أمْسكُوا بِهِ، وجَدُوهُ طِفْلًا صَغيرًا، فى سِنِّ الخامِسَةِ تقْرِيبًا، ولكنَّهُ كانَ لا يَتكلَّمُ..

كانَ هذا الطِّفلُ يمْشِى على رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ مِثْلَ الغِزْلانِ ويُحْدِثُ أصْواتًا كأَصْواتِهَا.. يأكُلُ العُشْبَ والحَشائِشَ، ولمَّا أحضَرُوهُ معهُمْ، أخَذُوا يُدَرِّبُونَهُ عَلَى أنْ يقِفَ علَى رِجْلَيْهِ فَقَط، وعلَى أنْ يتكلَّمَ مِثْلَنا، ويأكُلَ مِنْ طعامِنا.

هذِهِ القِصَّةُ تُؤكِّدُ لكَ، أنَّ الطِّفلَ يتعلَّمُ اللُّغةَ مِنَ الأسرةِ الَّتِى ينشَأُ فِيها، وإذا نَشَأَ فى بيئَةٍ لا يسْمَعُ فِيها كلَامًا، فإنَّه لنْ يتكلَّمَ، مِثْلَما حَدَثَ لِهذا الطِّفل.

وَبَيْنَما خالدٌ يُصْغِى باهْتِمامٍ إلى والدِهِ، سمعَ طَرْقًا علَى البابِ، لقدْ جاءَ صديقُهُ «فيليب» يُذَكِّرُهُما بِمَوْعِدِ الرِّحلَةِ الَّتِى سيقومونَ بها إلى أحَدِ أحْياءِ لَنْدن.



رَكِبَ الجَمِيعُ سيَّارَةَ الأسرةِ الَّتِى انْطَلَقَتْ بِهِم فى شوارِعِ لندن.

وكانَ خالدُ مُعْجَبًا بما يَراهُ:

الشَّوارعُ نظيفةٌ جِدًّا، والنَّاسُ يعْبُرُونَ الشَّوارِعَ مِنْ أماكِنِ عُبُور المُشَاةِ وشاهَدَ كثيرًا مِنْ معالِمِ لَنْدن..

ولَفتَتْ نَظَرَهُ بِصفَةٍ خاصَّةٍ المِسَلَّةُ المِصْرِيَّةُ (مِسَلَّة كليُوباتْرَا)

الموْجُودَة علَى شاطِئِ نهْر التَّيْمز.

انْتَهتْ أيَّامُ خالد فى لندن سَرِيعًا.. غَدًا سيعُودُ إلى مِصْر.. وجاءَ صدِيقُهُ «فيليب» لِيُساعِدَهُ فى إعْدادِ حَقِيبَةِ السَّفَرِ، لَقَدِ اشْتَرى خالدٌ لُعَبًا وهَدايا لأمِّهِ وأُخْتِهِ وأصْدِقائِه، وحَرَصَ على أنْ يُحْضِرَ معهُ كُتُبًا وقِصَصًا لِتُساعِدَهُ على تَعَلُّمِ اللُّغةِ الإنْجليزيَّةِ..

* * *

ركِبَ خالدٌ الطائِرةَ عائِدًا إلَى مِصْر، وبيْنما كانَ ينظُرُ مِنَ النَّافِذةِ، سَمِعَ الرَّجُلَيْنِ الجالِسَيْنِ أمامَهُ يَتَحَدَّثانِ بلُغَةٍ لا يعْرِفُها، ولَمَّا سألَ والِدَهُ، عرفَ أنَّهُما يتحدَّثان باللُّغةِ الفَرَنْسيَّةِ..

قالَ خالدٌ لِوالدِهِ: هلْ كُلُّ النَّاسِ فى العالَم لا يتكلَّمُون إلَّا العرَبيَّةَ أوِ الإنْجليزيَّةَ أوِ الفرَنْسيَّةَ؟

ضحِكَ والِدُهُ وهو يقولُ:

لَا.. إنَّ فى العالَمِ لُغَاتٍ كثيرَةً جِدًّا.. مِئاتِ اللُّغاتِ..

فتحَ خالدٌ فَمَهُ فى دهْشَةٍ وقال:

يَا.. مِئاتٌ مِنَ اللُّغاتِ!!



ونظرَ خالدُ مِنْ نافِذَةِ الطَّائِرَةِ.. ثُمَّ الْتفَتَ إلى والِدِه وقالَ:

وَلكِنْ يا أبِى.. الطِّفْلُ يتعَلَّمُ اللُّغَةَ مِنْ أُسْرَتِهِ فكيْفَ تَعَلَّمَ النَّاسُ أوَّلَ لُغَةٍ..؟

خلَعَ والِدُهُ نظَّارتَهُ وهُو يقُولُ:

أنا يا خالِدُ درَسْتُ الطِّبَّ وتَخَصَّصْتُ فيهِ، كُلُّ إنسانٍ يتخَصَّصُ

فى دِراسَةِ عِلْمٍ مِنَ العُلومِ، وأُخْتُكَ «مَهَا» تَخَصَّصَتْ فى اللُّغَةِ ودرَسَتْ علُومَها. وعِنْدَمَا تَعودُ اسْأَلْها. وسوْفَ تشْرَحُ لَكَ ذَلِك.

فرِحَ خالدٌ بعوْدَتِهِ إلى أرضِ الوَطَن..

وكانَ حَرِيصًا علَى أنْ يَعْرِفَ مِنْ أُخْتِهِ «مَهَا» كيفَ تعلَّمَ الناسُ أوَّلَ لُغةٍ تكلَّمُوا بها.

كانتْ «مَها» سعيدةً جِدًّا بأَخِيها خالدٍ، لأنَّهُ دائِمًا يُريدُ أنْ يَعرِفَ ويتعلَّمَ.. ويَسْأَلَ مَنْ هُوَ أكبرُ مِنْهُ.

وذاتَ مساءٍ جلَستْ معَهُ تَحْكِى لهُ وتقول:

الإنسانُ فى الماضِى البعِيدِ جِدًّا، كانَ يَعِيشُ فى الغاباتِ شِبْهَ عارٍ، يسْتُرُ جِسْمَهُ بأوراقِ الشَّجرِ، وجُلُودِ الحيواناتِ الَّتِى يصْطادُها، ويَسكُنُ فى الكُهُوفِ والمَغارَاتِ.

بِالنَّهارِ يخْرُجُ لِيبْحَثَ عنْ طعامِهِ فى شجرةٍ مُثْمِرَةٍ.. أوْ حَيوانٍ يَصِيدُه، يأْكلُ لحْمَهُ، ويلْبَسُ جِلْدَهُ.

وإذا جاءَ اللَّيلُ عادَ إلى كهْفِهِ أو مَغارَتِه ليحْتَمِىَ مِنْ خَطَرِ الوُحُوشِ المفْتَرِسَةِ.



كانَ يشْعُرُ بِضَعْفِهِ أمامَ الطَّبيعَة، وأمامَ الوُحوشِ ويُحِسُّ أنَّهُ فى حاجَةٍ إلَى مَنْ يُساعِده..

فاضْطُرَّ إلى أنْ يجْتَمِعَ مَعَ غيْرِهِ لِيَتعاوَنُوا معًا فى حِمايَةِ أنفُسِهِم لكنْ..

كيْفَ سَيَتفاهَمُ كُلُّ مِنْهُم مَعَ الآخَرِ؟

وَهُنا دَخَلَتْ ماما، وقدَّمَتْ لهُمَا كُوبَيْنِ مِنَ اللَّبَنِ السَّاخِنِ، وخرجَتْ حتَّى لَا تَقْطَعَ حَدِيثَهُما.

قالتْ مَها: أنتَ تعْرِفُ يا خالِدُ العَمّ «سَعِيد» بائِع اللَّبَن؟

قال خالدُ: إِنَّهُ أخْرَسُ لا يتكَلَّم..

رَآنِى مرَّةً وأنَا عائِدٌ مِنَ المدرَسةِ، كُنتُ أَعْبُرُ الشَّارعَ وَسْطَ السيَّاراتِ فأشارَ إلَىَّ بِيدِهِ وهُوَ يقولُ: «أَأَ» فَفَهِمْتُ أنَّه يُنادِينِى..

ولمَّا ذهبْتُ إليْهِ، أخذَ يُحَرِّكُ يدَيْهِ ويقُول: «أَأَ» فأدْرَكْتُ أنَّهُ يَقْصِدُ ألَّا أعْبُرَ الشارعَ وَسْطَ السيَّاراتِ حتَّى لا أتَعَرَّضَ للخَطَرِ، وأنَّ والِدِى لا يُحِبُّ أنْ أفعَلَ ذٰلكَ مرَّةً أُخْرَى.

وبسرعَةٍ سألتْهُ «مَهَا»:

كيفَ فَهِمْتَ مِنْه كُلَّ هذا وهو لا يتكلَّمْ؟

فقالَ خالدُ: منْ إشاراتِهِ وحرَكاتِه..

وَعِنْدَما أشارَ إلى شَارِبِهِ، فَهِمْتُ أنَّهُ يقْصِدُ وَالِدِى.

فقالت «مَهَا»: «براڤو» يا خالد، هكذا كانَ يتفاهَمُ النَّاسُ فى المَاضِى البَعِيد جِدًّا، يتفاهَمُونَ بالأصواتِ والحَرَكاتِ والإشاراتِ..



وكانَ الإنْسانُ يُقَلِّدُ أصْواتَ الطَّبيعَةِ والحَيواناتِ.. إذا أرادَ أنْ يقولَ «كَلْب» قَلَّدَ صوْتَ النُّباحِ «هَوْهَوْ» أوْ يقولَ «قِطَّة» قَلَّدَ صَوْتَ المُواءِ «نَوْنَوْ»..

ثُمَّ بدأ ينْطِقُ اللَّفظَ الَّذى يُحاكِى الصَّوتَ الَّذى يَسْمَعهُ.. فَكَلِمَة «آهْ» فِيها صَوْتُ التَّوَجُّعِ، وَكَلِمَة «أُفّ» فِيها صَوْتُ الضَّجَر.

وَكَلِمَة «شَقْ» فِيها صوْتُ شَقِّ الخَشَبِ..

وهَكذا بدأَتْ لُغَةُ الإنْسانِ الأولى..

ومَع مُرُورِ الزَّمَنِ وازْدِيادِ خِبرَةِ الإنسانِ، وتَعَدُّدِ حاجَاتِهِ تكوَّنتْ لُغَتُهُ وتَطَوَّرَتْ..

هَزَّ خالِدٌ رأْسَهُ، وابْتَسَمَ وهُوَ يقُول: الآنَ عَرَفْتُ كَيْفَ تعَلَّم الإنسانُ أوَّلَ لُغَةٍ وَكَيْفَ يتَعَلَّمُ الطِّفْلُ الكَلام.

شُكْرًا لَكِ يا أُخْتِى.

لَكِنَّ خالِدًا كانَتْ تدُورُ فى ذِهْنِهِ فِكْرَةٌ، وقدْ عَزَمَ علَى أنْ يُنَفِّذَهَا.

إنَّهُ سَيُراقِبُ أُخْتَهُ المولُودَة «سَحَرْ» لِيَعْرِفَ بِنَفْسِهِ مَتَى سَتَنْطِقُ، وكيْفَ سَيَتَطَوَّرُ نُطْقُها حتَّى تَتَعَلَّمَ الكَلامَ مِثْلَنَا.

لقدْ كانَتْ تَسْلِيَةً طَرِيفَةً مُفيدَةً..

هَلْ جَرَّبْتَ مَرَّةً أنْ تَعْمَلَ مِثْلَهُ..؟

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٣٠٧٦
الترقيم الدولى	977-02-6477-6 ISBN

٧/٢٠٠٣/٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)